# تعريف بالكتاب

أصدق الصدق فى أكذب الكذب

اذا صح هذا الوصف لتواليف رابليه فهى الصحة التى يعـــدوها الانصاف ، لأن كذبه ليس بالكذب فى لبابه ، أو هو ليس بالكذب عن سوء نية ، كما يقال فى لغة التحقيقات القانونية ، أو هو الكذب الكاذب ، وليس الكذب بالذى تستحكم فيه الصناعة حتى يجوز على أحد ، ولم يكذب رابليه كذبه الضخم وهو ينوى أن يزيفه على الناس ، لأن ضخامته وحدها حائل جسيم بينه وبين التصديق .

رجل كأنه الجبل ، وطفل يرضع الرضعة الواحدة من حليب المئات من الأبقار ، وفرس فى حجم قطيع من الفيلة ...

وقس على ذلك سائر ما فى القصص المتلاحقة التى أزجاها رابليه لقرائه وهو يفتحها بالسخرية من القارىء الطيب .. أليس من شيمة القارىء الطيب أن يصدق كل ما يقرؤه فى الكتب ؟ بلى ! وهـــذه أول سخرية فى الكتاب بأولئك الذين كانوا فى زمانه يصدقون كل ما يقرأون .

هذا هو أكذب الكذب فى تواليف رابليه كاتب العصر الانسانى الأول. وهو أشبه شىء بالنظارة المكبرة التى لا تغير الحقيقـــة أقل تغيير فى جوهرها ، متى علم الناظر أنه تكبير مصنوع متفق عليه .

يسأل الأستاذ بريزون فيما يلى من الحوار :

لماذا يتخذ أبطاله من المردة والعمالقة ؟ لماذا يأخذ رجالا يعتبر حجمهم وعملهم ومشاكلهم كلها فوق المعيار الانسانى ؟

ويجيبه الأستاذ ميخالوبولس فيقول : أعتقـــد أنه عشق ما كان

يسميه الفرنسيون ( بالفانتزى ) ... ولقد أراد أن يكون غريبا ، وأن يحكى قصة غير عادية .

وهذا واضح من فاتحة القصة وبعض أجزائها المتفرقة ، لان رابليه كتب قصصه المتلاحقة فى خلال عشرين سنة ، كان ينسى فيها نفسه أحيانا ، أو كان يأمن دواعى الحذر من حين الى حين ، فيترك الاغراب والتهويل والتضخيم ويرجع بأبطاله الى « الحجم الطبيعى » والشكل المألوف ، ولهذا كان التضخيم مقصورا على المقدمات وعلى بعض الأجزاء دون سائرها ، ولكنه أراد « الفانتزيه » فى الواقع لغرض آخر غير مجرد اللعب والانطلاق من القيود التقليدية ، بل أرادها لغرضين لا لغرض واحد : أحدهما فنى أو نفسانى ، والآخر يرجع الى حسن السياسة والى الحيطة الواجبة على مثله ، وهو من زمرة رجال الدين فى نشأته ، ثم من زمرة رجال الطب بعد أن جاوز الخامسة والثلاثين .

فأما الغرض الفنى النفسانى فهو اشباع النزعة الانسانية واعطاؤها كل حقوقها واستيفاؤها لكل مطالبها ، وتعويض الانسان عما فاته من متعة الحياة بما تشتمل عليه من متعة الجسد ومتعة الفكر أيام الحجر الطويل على لذاته المباحة ، وأشواقه المشروعة .

كان الأدب الشائع بعد انحلال الحضارة الرومانية التى أغرقت فى الترف والتبذل غاية الاغراق أن الخير كل الخير فى نبذ الجسد وتحريم اللذة ، وكان الرأى الغالب بعد انقضاء عصر المعرفيين Gnostics أن طلب المعرفة العقلية ضلال ، وأن استقلال الانسان بتفكيره ينحرف به عن الدين القديم ، وأنه خليق أن يغمض عينيه ويسلم زمامه لقادته الدينيين يعرفونه ما ينبغى أن يعرف ، ويسبقونه ليلحق بهم فى طريق التقليد والجمود على القديم .

وجاءت الدعوة الانسانية برد الفعل الذى أطلق النفس الانسانية من وراء تلك السدود فاندفعت كما يندفع السجين الذى يخطر له ساعة انطلاقه أنه سيعوض فى ساعات من الحرية ما فاته فى السنوات بين

الجدران والقيود ، ويخيل اليه أنه يريد أن يتطلع الى الدنيا بألف عين ، وأن يأكل ويشرب بمعدات الغيلان ، وأن عينى الانسان الواحد لاتعنيانه ، ومعدة الانسان الواحدة لا تشبعه ولا ترويه .

وهكذا كان أبطال رابليه يأكلون ويشربون ، ويسرحون ويمرحون ، وهكذا كان من الدنيا نصيب دون نصيب الغيلان والمردة ، ولا نصيب ولا يكفيهم من المعرفة دون نصيب السحرة العفاريت ، وقد استعار اسم بطله من اسم عفريت كانت مهمته بين العفاريت أن يتعقب ( بانتاجرويل ) السكارى ليلا ليحشو حلوقهم بالملح ... تشويقا لهم الى اعادة الشراب قبل أن يفتحوا أعينهم على الصباح ، وكان عامة أبطاله فى عامة شئونهم على هذا المثال .

وقد كان شعار رابليه ـ كما نسمعه من أفواه أبطاله وبطلاته ـ أن الضحك أقدس شىء فى الحياة ، وأنك مطالب بأن تصنع ما تشاء ولا تقف عند محظور غير محظور الضرر والألم ، وأن الدنيا جنة لا نحرم أنفسنا من ثمراتها بأنفسنا ، وأن فرصة الشباب فرصة لا تعاد .

أما الغرض الآخر الذى دعا رابليه الى التضخيم ومخالفة العيار المألوف ـ وهو الغرض الذى يرجع الى السياسة والحيطة ـ فهو الحذر من رجال الدين ورجال العلم على السواء ، لأنه اذا تكلم بلغة الخرافات سلم من اللوم على حسب تقديره وقال لمن يلومه انه يعنى أناسا غير أبناء آدم وحواء ، ويتكلم عن عالم غير هذا العالم الذى يعيشون فيه . وقد كان ينسى نفسه بعد قصة الافتتاح حينا بعد حين ، أو يسبق الى ظنه أنه قد أدى ضريبة الحذر المفروض عليه ، فيعود الى أبناء هذه الدنيا كما خلقهم الله ، ويجر عليه الملامة التى اتقاها وخيل اليه أنه قد نجا منها أو كاد ، ويتعرض للمصادرة بأمر البرلمان مرة بعد مرة ، وينقح النسخة ثم يعيد تنقيحها على غير جدوى . لأن الحملة على الرياء الدينى ، ورياء المظاهر والألقاب معا ، كانت فى ضخامة المردة والغيلان ، لم ينفعه ستار الفن فى حجبها عن الأنظار ، ولا سيما أنظار المصابين بضربات ذلك الضحك المجلجل الموهوب .

ومن حظه السيىء ـ ولم يكن هو ممن يبالون سوء الحظ طرفة عين ـ أنه كان يعطف على التحرير الدينى ، ولكنه كان عرضة للسخط من زعيم هذا التحرير ـ كلفن ـ كما كان كلفن عرضة للسخط منه .. لأن الزعيم المتزمت كان يقول عنه انه خليع ماجن ، وكان هو ينصب المتزمتين غرضا له فيما يكتب وما يقول ، ولم يخسر ( كلفن ) ليكسب رجال الكنيسة التقليديون ، فانه كان عندهم سكيرا لا يروى ، وكان ظمؤه الى المعرفة ـ ذلك الظمأ الذى لا يروى كذلك ـ شبهة أخرى لديهم تضاف الى شبهة الشراب ، لأنه أقدم على تعلم الاغريقية وهو فى الدير ، وكان تعلم هذه اللغة دليلا كافيا على الولع بالفلسفة المحرمة والبحث عنها فى مصادرها المستورة ، دليلا من ناحية أخرى على الولع بأنواع اللهو الأدبى الذى امتلأت به روائع الشعر والفكاهة فى الاغريقية. وكان الشقاق يومئذ على أشده بين الاغريقية لغة الكنيسة الشرقية واللاتينية لغة الكنيسة الغربية ، وهو أحد رجالها النابهين .

أما رابليه « الانسانى » فقد كان ولعه بالاغريقية قبسا صغيرا من هيامه بكل معرفة مستطاعة فى زمانه ، فكان يقرأ كل ما وصل الى يديه ، ويبحث عن كل كتاب مجهول لم يصل اليه ، وتعلم الطب وبرع فيه وحاضر عن أطباء اليونان واطلع على آرائهم وأقوالهم فى لغتهم الأصلية . ولم يشغل أبناء عصره بفرع من فروع المعرفة الا كان له فيه السهم الأوفر بين أهله ، وهذه هى المناقشة ـ أو المنازعة التى أثارت عليه علماء السوربون ، فاجتمعت عليه عداوة أقطاب العلم وأقطاب الدين .

وعلى هذا لا يظهر من كتاباته كلها أنه فقد العقيدة الدينية ، وكل ما يظهر منها أنه يسخر من الرياء والتزمت فى طائفة من رجال الدين ، كما يسخر من كل رياء « اجتماعى » فى طوائف الناس جميعا ، وقد سلم سخره بهم جميعا من آفة الضغن والايذاء ، وجرى فى جملة أحاديثه مجرى العطف الذى ينم على الشعور بالضعف الانسانى فى

أعماق الطبيعة البشرية ، وهو عطف مدرسة الفلاسفة الانسانيين وأساس الدعوة الانسانية من بداءتها الأولى .

ولم يثبت شيء من الأقاويل التى نسبت اليه فى أيامه الأخيرة بعد مصارحة المتزمتين والمنافقين له بالعداوة .

قيل انه التفت الى المحيطين به قبيل وفاته وقال لهم مبتسما : اليكم عنى يا هؤلاء ! ـ ارفعوا الستار فقد فرغنا من المهزلة ، وأحسبنى مقبلا على ( ربما ) غاية فى الضخامة .

ولكن هذه الأقاويل وأشباهها تتناقض فى أخبار رابليه ، ولعلها على مثال الأقاويل التى نسبت الى كل مشهور ذى صبغة معروفة فى أدوار الانتقال ، فان المختلق فيها يربى على الصحيح ، ومسلك الكنيسة معه بعد وفاته يدل على خلاف ما تتردد به تلك الأقاويل .

واذا نظرنا الى مكان رابليه فى هذه المجموعة الموسومة باسم مائدة المعرفة ، أو الدعوة الى المعرفة ، فهو ـ ولا خلاف ـ مكان الصدر بين أعلامها البارزين ، لأنه ربما كان أسبقهم الى دعوة المعرفة وأشدهم نهما على مائدتها . ولا يزال أثره الأدبى أروج آثار القرن الخامس عشر بين قراء العصر الحديث وكتابه ورواته ، فليس فى الأزمنة التى خلفته علم من أعلام القصة أو المسرحية لم يقتبس عنه ولم يرجع اليه ، ونحسب أنه كان أقرب الى أن يكون « مصرفا أدبيا » فى ثروته الكتابية مما كان الى غير ذلك بين رواد هذه السوق فانه كان يستفيد من رأس مال المصرف كما يفيد ، وكان هو ومن أخذوا عنه سواء فى القرض والاقراض ، لأنه عمل بالثروة التى اقتبسها ممن تقدموه عمل المصرف فى نقود أصحاب الأسهم الكثيرين ، وعمله فيها هو الربح والتوزيع .

**عباس محمود العقاد**